المشرق

الارشمندريت فوتيوس ورسائل البروفنسيال

بقلم الاب لويس شيخو اليسوعي

احسّ الارشمندريت فوتيوس محرّر الهدية انّ الضربات التي وجّهها ضد الرهبانيّة اليسوعيّة حاضرًا لم تُجدِ فتيلًا بل اظهرت لكل ذي عيان اراجيفهُ الباطلة لِما يعرف الجميع من احوال اليسوعيين وهم منذ القرن السابع عشر يخدمون في هذه البلاد الدين والوطن بنشاط واخلاص يقرُّ لهما اعداؤهم فضلًا عن محبّيهم

وقد ظنّ الارشمندريت المجاهد انّهُ اذا نقّب في زوايا المكاتب يستخرج منها كنوزًا دفينة ليفيد بها قرّاءهُ بحقائق راهنة لكنّهُ شأن الجهلان لم يسقط على غير القاذورات ولا عجب فان السيد المسيح يقول في انجيلهِ الطاهر (متى ١٢ : ٣٤) : «انّما يتكلم الفم من فضل ما في القلب فالرجل الصالح من كنزهِ الصالح يخرج الصالحات والرجل الشرّير من كنزهِ الشرّير يخرج الشرور»

فيا تُرى ماذا استخرج الارشمندريت هذه المرّة من كنزهِ ؟ كان سبقهُ بعض اعداء اليسوعيين فوجدوا في طوامير الورّاقين كتاباً صغيرًا لاتينيًّا اسمهُ (Monita Secreta) يتضمّن على ما ظنّوا تعاليم سرّيّة شائعة في الرهبانيّة اليسوعيّة فنقلوهُ الى العربيّة فما لبثوا ان تأكدوا انّ الكتاب مزوّر وقد حرمهُ الكرسي الرسوليّ وأفتت باكذيبهِ مجالس الشرع المدنيّة . ثمّ عمدوا بعد ذلك الى رواية ضخمة ألّفها باغراء اعداء اليسوعيين وعلى نفقتهم الكاتب اوجان سو تحت عنوان «اليهودي التائه» فعرّبوها لعلّهم

يفخرون بها ابناء القديس اغناطيوس فكان نصيبها نصيب الروايات اللفقة التي يشحنها اصحابها ما شاؤوا من اوهامهم وترّهاتهم فكان فعلهم ضربةً جديدة في الهواء ولم ينتقص من جرّانها ذرّةً شرف الرهبانيّة اليسوعيّة

لكنّ مدبر جريدة الهدايّة لم يرضَ بهذه المناصفة فعمد الى ما كتبهُ احد مشاهير الفرنسيس الكاتب بلاز پسكال لزعمه انّهُ هو كجُهَيْنة عندهُ الخبر اليقين او يقطع كجُهَيْزة قول كلّ خطيب . فهلمّ بنا اذن ننظر هذا الجليات الجديد القائم على اليسوعيين بسيفهِ القاطع وبناءاته المدمّرة

ولنبدأ اوّلًا بذكر لمحة من ترجمة پسكال وسبب تحاملهِ على اليسوعيين . ثمّ نفحص ثانياً رسائلهُ المعروفة بالبروفنسيال . وناقدها ثالثاً بحكم العلماء في صدق هذه الرسائل ونختم الكلام بحكم ارباب الدين والدنيا في الرهبانيّة اليسوعيّة

من هو پسكال وما هو سبب تحامله على اليسوعيين

بلاز پسكال مهندس وطبيعيّ وفيلسوف فرنسويّ وُلد في مقاطعة أوڤرني في مدينة كلرمون سنة ١٦٢٣ وتوفي في باريس سنة ١٦٦٢ قبل ان يبلغ الاربعين من عمره . نبغ منذ حداثة سنهِ في العلوم الطبيعيّة والرياضيّة حتى يُعزى اليهِ اكتشاف بعض اسرارها وكان مع هذا عميق النظر في مكنونات الكون وعلاقاتها مع العالم الآخر ولاسيما مع مبدعها سبحانهُ وتعالى

وكان پسكال مع نبوغهِ نحيف البنية عصبيّ المزاج يتأثر من كلّ المحسوسات الخارجيّة فاستسلم في شبابهِ مدّةً الى اللاهي العالميّة فلم يجد فيها راحةً لقلبهِ اذ شعر بفروغها وبطلانها . ثمّ ارعوى فلازم حيناً العلوم العقليّة وحيناً الدروس الفلسفيّة ليشغل عنها افكارهُ ثمّ رأى باغراء اختهِ جاكلين ان يتخذ لهُ الحياة النسكيّة منهجاً

وكانت في ذلك العهد قد فشت في فرنسة البدعة الجنسنيانيّة بساعي جانسنيس اسقف مدينة ايپر المتوفّى سنة ١٦٣٨ الذي ألّف كتاباً وسمهُ باسم القديس اوغسطينوس (Augustinus) ادّعى فيه انّ الانسان فقدَ حريّتهُ بعد خطيئة آدم وانّ اعمالهُ الصالحة والطالحة انّما هو مدفوع اليها مرغماً امّا بفعل نعمة الله وامّا بدافع شهوتهِ . وانّ نعمة الله لم تُعطَ لهُ دائماً وانّ المختارين مَن يجتبيهم الله دون مراعاة لاعمالهم .

فاستخرج الكرسي الرسولي من كتابه هذا خمس قضايا ضربها الاحبار الرومانيون بالحرم سنة ١٦٤٢ . فقام انصار جانسينيوس وناهضوا احكام الكرسي الرسولي بما امكنهم من ضروب المكر والدسائس والفوا حزباً سياسياً ملأ بلاد فرنسة قلقاً وفوضى . وكان مركز مناصبتهم تعاليم الكنيسة في دير بور رويال (Port-Royal) حيث كانت بعض الرواهب المنتميات الى بدعة جانسينيوس وفيه ترهبت جاكلين اخت پسكال . وكانت اولئك الراهبات ومثلهن الفلاة من الجانسينيانيين يبالغن في اعمال النسك ويضايقن ضمائر الناس ويطالبن من يمتري الى حزبهن بأعمال شاقة ولا يسمحن بالتقرب الى الاسرار المقدسة إلا بعد رياضات طويلة تدوم مراراً عدة سنين فيكاد الانسان يقطع الرجاء من خلاصه . وكان المدعو ارنولد (Arnauld) زعيم الحزب يلتجئ الى ضروب الحيل لتعزيز حزبه ومقاومة احكام الكرسي الرسولي مدعياً على الرغم منه انه من اصدق الكاثوليكيين . فالى هذا الحزب انضوى پسكال مدفوعاً اليه من انصاره ولاسيما من اخته جاكلين والزعيم ارنولد .

ومن المعلوم ان الرهبانية اليسوعية منذ اول نشأتها كانت اخذت على نفسها الدفاع عن الكنيسة الرومانية واحبارها وتعاليمها . فما ظهرت البدعة الجانسينيانية في فرنسة حتى نهضت رهبانية يسوع لرد غاراتها وتزييف اضاليلها سواء كان بتآليف ابنائها او بتعاليم اساتذتها او مواعظ خطبائها فكانوا في مقدمة الجيش الكاثوليكي . ومن المقرر ان ضربات العدو الاشد قساوة انما يكابدها صف الجيش المقدم فشبت حرب عوان بين الجانسينيانيين واليسوعيين لم تخمد لظاها تماماً إلا بالغاء الرهبانية اليسوعية بمكيدة زعماء اهل الكفر وبسقوط الحزب الجنسيني بفعل الثورة الفرنسوية

وعرف ارنولد ما لپسكال من السمعة والصيت بسبب انتشار مطبوعاته العلمية ولبراعته في الكتابة فلما حرم مجمع السوربون العلمي كتاباته تقدم اليه بان يؤلف كتاباً يبرر شيعته ويبخس فيه من حقوق الرهبانية اليسوعية وأخذ على نفسه ان يهيئ له مواد كتاباته اذ لم يكن پسكال يعرف شيئاً من احوال اليسوعيين ومن تآليفهم فعزم على تلبية الحزب الجنسيني فكان ذلك داعياً لوضع رسائله المعروفة بالبروفنسيال

٢ رسائل البروفنسيال

رسائل البروفنسيال كناية عن مقالات في صورة مراسلات ألّفها بسكال سنة ١٦٥٧ تحت اسم مستعار يُدعى لويس دي مونتالت (L. de Montalte) كأنّ المذكور يوجّهها الى احد اصحابه من الاقليميين (provincial) فيسعى ان يثبت فيها صحّة المذهب الجنسياني ثمّ يتحامل على تعاليم اليسوعيين مدّعياً انها مناقضة للآداب فاسدة للاخلاق. فما كاد يظهر هذا الكتاب حتى تناصر كلّ انصار الجنسيانيين واعداء الدين لاطرائه فطبّلوا به وزمّروا ونقلوه الى اللغات شتى لا لصدقه وحقيقة مضامينه بل لمجرّد وشيه بسهامه خصومهم الالداء اليسوعيين المدافعين عن الايمان والمؤيدين لتعاليم الكنيسة الكاثوليكيّة

دعنا نعمل في هذه الرسائل نظر الانتقاد كما ثبت اليوم للمنصفين الصادقين فنقول: قد رَمَى اعداء الرهبانيّة اليسوعيّة في زعمهم انّ رسائل البروفنسيال تطعن رأساً في طغمة يسوع وقوانينها ومنشئها، وهي مجموعة ثماني عشرة رسالة الاربع الاولى منها يحاول فيها بسكال اثبات مزاعم الحزب الجنسياني استنادًا الى تعاليم القديس اوغسطينوس ملفان الكنيسة الكبير فيروي له زعماً يأخذها على غير معناها كما لقّنه ارنولد واصحابه الجنسيانيّون وانما تظهر معانيها الصحيحة في قرائنها لان القديس اوغسطينوس تعتبره الكنيسة كاكبر معلّميها في تعريف نعمة الله وتطبيقها على الحرّيّة البشريّة

وبسكال في هذه الرسائل الاربع الاولى يستحقر ما كتبه آباء الكنيسة غير القديس اوغسطينوس ويزدري بتعاليمهم لمناقضتها لآراء البدعة الجنسيانيّة، ونتعجّب كيف الارشمندريت فوتيوس يعدل عن هؤلاء الآباء الذين منهم ملافنة الكنيسة اليونانيّة فيتحزّب لاعداء كنيسته

امّا الرسائل الاثنتا عشرة الباقية فان بسكال لم يتابع فيها الدفاع عن الجنسيانيّة بل عدل فيها الى تخطئة تعاليم اليسوعيين في كتبهم الادبيّة اي اللاهوت الادبي. ومن المعلوم انّ تعاليم اليسوعيين ليست خاصّة بهم وانما هي شائعة بين كل علماء الكنيسة الكاثوليكيّة وكتبهم لا تبرز للطبع إلّا بعد عَرْضها على السلطة الكنسيّة ونَسْمها بالرخصة الرسميّة فتخطئته لتعاليمهم يتحامل على تعاليم الكنيسة الكاثوليكية باجمعها

ومن غريب عمل بسكال انهُ لم يراجع اساطين العلوم الادبيَّة في الرهبانيَّة اليسوعيَّة كسوارز (Suarez) وفاسكز (Vasquez) ولوغو (Lugo) وتوليتوس (Tolet) وعشرات غيرهم وانَّما عمد الى علماء دونهم كاسكوبار (Escobar) وبينت (Binet) وباري (Barry) وروى عنهم ما جعلهُ هدفاً لسهامه

واغرب من ذلك انهُ في ردودهِ على هؤلاء اليسوعيين لم يقرأ كتبهم وانَّما روى كلامهم مبتوراً مغمَّضاً كما رواهُ لهُ اصحابهُ لا كما تثبَّتهُ بنفسهِ في الاصل . والدليل على ذلك انَّهُ في رسالتهِ التاسعة التي سعى فيها الى الطعن بكتابات الايسوعيين «بينت وباري» يقول «اني بعد ما كتبتُ رسالتي هذه طالعتُ كتب الآباء باري وبينت» . وقولهُ هذه من المضحكات المبكيات فهو يردُّ على هذين اليسوعيين ويورد شهاداتهما ولم يطالع كتبهما إلَّا «بعد ما كتب رسالتهُ» وانَّما استهزأ بكتاباتهما معتمداً على اصحابهِ الجنسنيانيين الذين موَّهوا عليهِ واختاروا لهُ ما راق لهم ولفَّقوهُ ليخدع بهِ ويخدع قرَّاءهُ

ولمَّا كتبت لهُ السيِّدة دي سابله ((Madame de Sablé تستقبح تزويرهُ لاقوال اليسوعيين اجابها «انَّ المسئولين في ذلك هم الذين قدَّموا لي هذه المعلومات امَّا انا فأكتفي بنشرها» (Rapin : Mémoires, II, 295) فيا لهُ من عذر اقبح من ذنب !

وربَّما روى بسكال مشاكل ذمَّة نقلًا عن كتبة يسوعيين فيتصرَّف بها بعض التصرُّف بحيث يخرجها عن خطَّة الصواب فمثال ذلك ما رواهُ في احدى رسائلهِ عن احد معلِّمي اللاهوت اليسوعيين في جواز قتل السارق اذا اراد ان يسلبك سبعة ريالات فينسب الى الاب اليسوعي مولينا جواز قتلهِ وانَّما يقول الاب فقط «لا يجوز قتل السارق الذي يختلس خمسة او ستة ريالات . . ومهما كانت السرقة فيلزم ان ننصح دائماً بعدم قتل السارق» فحرَّف بسكال كلامهُ ونسب اليهِ ما لم يقل بهِ

وفي اماكن اخرى من رسائلهِ يستشهد بسكال بكتبة ليسوا من اليسوعيين لظنِّهِ انهم منهم كاستشهادهِ بالاب «ديانا» وهو ليس يسوعيًّا بل من رهبنة التيانيين

حكم العلماء عن رسائل البروفنسيال

فهذه التزويرات وغيرها كثير شحَنَ بها بسكال رسائلهِ واثبتها لهُ اليسوعيُّون في

ردودهم تبيّن انّ پسكال مع علمهِ بالطبيعيّات لم يجدْ بهِ علمهُ عن الحيل والماحكات والكذب. وحكمُنا هـذا يؤيدهُ ذاك الكافر الكبير فولتير (Voltaire) نفسهُ فدونك ما كتبهُ في كتـابه الشهير عن قرن لويس الرابع عشر (ج٣ ص٣٧): «انّهُ لأمر ثابت بان الكتاب (اي رسائل البروفنسيال) مشحون بالتحريف والتزوير» وقال في موضع آخر: «حاوَلَ (پسكال) صـاحب الرسائل ان يثبت على اليسوعيين انّ من نيّتهم ان يفسدوا الآداب بين البشر والحال انّا لم نرَ قطّ جمعيّةً في الدنيا تأسست على هـذا المبدإ وأمكنها ان تبني عليهِ ولكن لم يقصد (پسكال) اظهار الحقّ بل كان الغرض من الرسائل تسلية القارئين» اعني مشايعة اصحابهِ الجنسنيانيين

وقال الكاتب الكبير شاتوبريان «ليس پسكال الّا نمّاماً نابغـة خلّف لنا كذباً مخلّداً «Pascal n'est qu'un calomniateur de génie, il nous a laissé un mensonge immortel» فلا عجب انّ اختار الارشمندريت فوتيوس تعريب اكاذيبهِ فكلّ طير يأوي الى جنسهِ

وفي عصرنا هذا قام كثيرون من مشاهير الكتبـة من بروتستانت وملحـدين واعداء الدين كشيل (Schoell) وسانت بوف (Sainte-Beuve) وهافره (Havret) وندّدوا بعمل پسكال واراجيفهِ الفظيعة

وما لا ينكر انّ رسائل البروفنسيال اساءت الى الدين عموماً اكثر من اساءتهـا الى اليسوعيين لانهـا عرّضت الامور الـدينيّة الى السخريّة والاستهزاء واشاعت في العموم الاستخفاف بتعاليم الكنيسة ومهّدت السبيل الى روح الكفر الذي ظهر في القرن الثامن عشر

وهذا ما دفع الكنيسة والحكومة على رَذْل هذه الرسائل وشَجْبها رسميًّا فانّ الملك لويس الرابع عشر عيّن لجنة مؤلفة من١٣ عالماً من كبار العلماء الفرنسويين بينهم مطارنة واساقفة ولاهوتيّون ليفحصوا رسائل البروفنسيال فحصاً مدقّقاً فيعلنوا عنها حكمهم فكانت نتيجة هذه المرافعة ما قرّرهُ قضاتها في ٤ ايلول سنة ١٦٦٠ فقالوا «انّ رسائل البروفنسيال كاذبة بمدافعتها عن الجنسنيانيين وانّها عمل طُعن وسفاهة في حقّ البابا والاساقفة والملك والوزراء وندوة باريس اللاهوتيّة والرهبانيّات المسيحيّة فيجب

ان يُحكم عليها بالعقاب الذي تحكم به الشرائع على التآليف الموعبة شتائم وارطقات »

وبناء على هذا الحكم أمر مجلس الشورى بان يحرق كتاب بسكال بالنار في الساحة الرومية . امّا الكرسي الرسولي فكان سبق وحرّم قراءة تلك الرسائل السفيهة فترى الى اي نتانة عمد الارشمندريت فوتيوس ليسرّ بروائحها الكريهة قرّاء الهدية . فلا بأس انّ كلّ اناء ينضح بما فيه

الرهبانيّة اليسوعيّة في عين الكنيسة وعقلاء الناس

فان كانت هذه بضاعة اعداء الرهبانيّة اليسوعيّة التي تُظهر لاوّل وهلة سخافتها وكسادها افلا يجوز لنا ان نذكر شيئاً من مفاخر تلك الرهبانيّة واحكام عقلاء الناس في حقيقة امرها

واوّل ما يجب قولهُ انّ الرهبانيّة اليسوعيّة ليست جمعيّةً سرّيّة فانها تباشر كلّ امورها علانيةً يعرفها الخاصُّ والعامّ لا يفوتهم شيءٌ من احوالها . يتخرّج الصغارُ والكبار برهبانها امتزاج الماء بالراح فلو حاولوا اخفاء شيء من اسرارهم لما استطاعوا اليه سبيلاً

ومن هذه الرهبانيّة قد خرج عدد لا يُحصى من القديسين الابرار وقد اثبتت الكنيسة رسميًّا قداسة كثيرين منهم . كفى بذكرهم تنويهاً بسموّ فضلهم كالقديسين فرنسيس كسفاريوس وفرنسيس بورجيا ولويس غونزاغا وبطرس كلافر والملفان بطرس كانيسيوس وكالطوبويين يوحنا الكردينال وبرنردين ريالينو وكشهداء اليابان والبرازيل وكندا والمجر وفرنسة . وكمئين غيرهم يُنتظر تثبيتهم . ومن المعلوم انّ الشجرة الصالحة تُعرف من ثمرتها

وكما تقدّس فيها الوف من ابنائها كذلك تخرّج عليها الوف مؤلفة من القديسين وكبار الرجال كالقديس فرنسيس دي سال والخطيب الكبير بوسويه والشاعر النابغة كورنيل ولكلهم في الرهبانيّة اليسوعيّة اطيب الثناء

واعظم من ذلك شهادات البابوات الرسميّة في الرهبانيّة اليسوعيّة فقد جمع احد آباء رهبانيّتنا حضرة الاب سليمان غانم سنة ١٨٨٥ كتاباً في ٩٣ صفحة دعاهُ « البابوات

وطفمة يسوع ، اورد فيه شهادات ٣١ حبراً اعظم من اوّل بابا اثبت رهبانيّتهم وهو بولس الثالث سنة ١٥٤٠ الى لاون الثالث عشر سنة ١٨٧٨ وكلّهم لسان واحد في اطراء الرهبانيّة اليسوعيّة ومآثرها الجليلة . ولا يشذّ عنهم البابا اكليمنس الرابع عشر الذي اضطرّتهُ الدول بإغراء الكفرة الى الغاء الرهبانيّة اليسوعيّة ففعل مرغوماً بعد التردّد الطويل دون ان يثبت لها ذنباً واحداً . ولهذا البابا تقريظ في الرهبانيّة اليسوعيّة حرّره سنة ١٧٦٩ في ١٢ تموز بمناسبة منحه نعماً روحيّة لليسوعيين المرسلين فقال ما تعريبهُ :

«انا بطيبة الخاطر نفيض كنوز الخيرات السنيّة على اولئك الذين نعرفهم يشتغلون بحرارة عظيمة لخلاص النفوس وبمحبّتهم الشديدة نحو الله ونحو القريب وبغيرتهم بلا كلل على خير الديانة وبما اننا نعدُّ بين هؤلاء الفئة النشيطين في حقل الربّ رهبان طغمة يسوع . . . نرغب ايضاً بكل تحقيق تأييد وغناء تقوى وغيرة هؤلاء الرهبان انفسهم النشيطين والغير هيابين الاموال بالانعامات الروحيّة . . . »

ونضيف الى المجموع المذكور الثلاثة البابوات الذين خلفوا لاون الثالث عشر اعني بيوس العاشر والحادي عشر وبندكتوس الخامس عشر وكلّهم من المتخرّجين في الكليّة الغريغوريّة التي يديرها اليسوعيّون في رومية واطنبوا غير مرّة في محامد الرهبانيّة اليسوعيّة واتّخذوا ابناءها كمرشدين لضميرهم

اما الذين أعلنوا فضل الرهبانيّة اليسوعيّة من غير الاحبار الاعظمين فانّ شهاداتهم القيّمة والطافحة بالثناء لو جُمعت لملأت حَوتها المجلّدات الضخمة بينها شهادات قديسين كالقديس الفونس دي ليغوري ومنها للملوك عظام كهنريكوس الرابع ولويس الرابع عشر وفيلبّس الثاني ولكبار الرجال من قوّاد الجيوش وعلماء وروساء كنائس ورهبانيّات في العالم كلهِ بل بينها شهادات لاعدائهم المقرّين بفضلهم كفولتير وامثالهِ

وقد شهد لهم احبار الكنائس الشرقيّة الذين تلطّفوا غير مرّة ونشّطوهم شفاهاً وكتابةً باعلان رضاهم باعمالهم الرسوليّة جازاهم الله خيراً عن حسن ظنّهم بنا

فلا يبقى بين مناهضي الرهبانيّة اليسوعيّة إلّا اعداء الكنيسة من مبتدعين وكفرة وفرمسون الذين قُضي على اليسوعيين بواجب الضمير الوقوف في وجههم صيانة للمؤمنين من شرورهم . فان كان الارشمندريت فوتيوس ينظم ذاتهُ في عداد هؤلاء الاشرار فلا يلومنّ غير نفسهِ اذا قام اليسوعيون وبيّنوا شططهُ . والسلام على من اتّبع الهدى